طريقُ الصّعاليك في روايات الرحَّالين المغاربة خلال القرنين ١١و١٢هـ/١٧و١٨م

أ.د أحمد بوسعيد

الملخص

تباينتْ طرُقُ الحج المغاربية في العهد العثماني، لكنَّ أكثرَها ذكراً في المصادر طريق بريّة أفقية، سُمّيتْ "طريق الصعاليك" من طرف رحّالة مغاربة كثيرين، على غرار: ابن أبي محلي السجلماسي في رحلته الحجية الأولى سنة ١٠٠٠هـ/١٥٩٢م، وأبي سالم العياشي في رواحهِ من حجَّة سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦١م، وأبي علي اليوسي في رحلة ١٠٩٥هـ/١٦٨٤م، والأمر ذاته بالنسبة لأحمد بن ناصر الدرعي سنة ١١٢١هـ/١٧٠٩م، وأبي العباس الهلالي السجلماسي سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م وغيرهم، وتربط تلك الطريق أربعةَ أقطار مغاربية هي: المغرب الأقصى، إيالات: الجزائر، تونس وطرابلس الغرب. ومردّ تلك التسمية ليس مسالكَها الطبيعية الوعرة فحسب، ولكن بسبب كثرة النّهب والاعتداءات التي كان يتعرض لها الحجّاج المغاربة، من طرف الصعاليك اللصوص من الأعراب (العرب البدو الرّحل)، الذين يُقيمون أو يظعنون قريباً من مسار ركب الحج، وقطّاع الطرق المتحكمين في تلك المفازات، فضلاً عن وجود فئة "الصعاليك الحجّاج"، المستنكفين عن أداء مهامهم ضمن الركب، الذين يتوسّطون القافلة، ويتمردون على نظام رحلة الحج وضوابطه، والذين لم يَخلُ منهم ركب الحاج المغاربي خلالَ تلك الفترة. وتسعى هذه الورقة البحثية إلى رصد محطات تلكم الطريق، وتبيان ماهيتها وحقيقتها، واستقراء آراء أشهر الرحّالين المغاربة بشأنها، وكشف أساليب الاعتداء والسلب من قِبل الأعراب الصعاليك المتغلّبين على مسارها، ومظاهر الحيطة والحذر منها، والجهود المتخذة قصدَ تأمين رحلة الحجّاج المغاربة.

الكلمات المفتاحية: طريق الحج، الصعاليك، الحجّاج، الرحّالة المغاربة، إقليم برقة، بلاد المغرب، المحطات.

Roads of Tramps (Saalik) in the novels of Moroccans travellers through 11-12 H

Prof: Ahmed Boussaid

Abstract

There were varied Maghreb pilgrimage routes during the Ottoman period, the most frequently cited one in sources was a horizontal land route that was named as "the road of tramps/Saalik" by many maghriban travellers, such us: the Sijilmassi Ibn Abi mahali, in his first trip to pilgrimage in 1000 H / 1592 AD, Abu Salim Ayachi in his way back from pilgrimage in the year of 1072 H / 1661 AD, Abu Ali Aliossi in the trip of 1095 AH / 1684, Ahmed bin Nasser Al Darie in the year of 1121 H / 1709 AD, and the Sijilmassi Abu Abbas al-Hilali in 1150 H / 1737 AD and others. That road connected four countries of the Maghreb which are: Maghrib al-Aqsa(Farthest West), Ayalat: Algiers, Tunis and West Tripoli. The reason for that label is not only the natural rough paths. But also the large number of looting and attacks that the Moroccan pilgrims were exposed to by tramps, thieves from the Bedouins (Arab nomads), who resided close to the paths of the pilgrims, and by bandits/ muggers that had their grip on those roads. As well as having another category of "pilgrims tramps", who abstained from fulfilling their duties in the convoy, and rebelled against the regulations and systems of the pilgrimage. And these latter (pilgrims tramps) always found their places in the Maghriban pilgrimage convoys during that period.

This paper seeks to monitor the stations of that road, and show how they were, what they included. And to extrapolate the views of well-known Moroccans travellers about them. As well as to reveal the methods of attacks and looting by Bedouins Tramps who dominated that track, what precautions and security measures were made, and what efforts taken in order to ensure a safe Moroccan pilgrimage trip.
Key words: the pilgrimage route/road, tramps, pilgrims, Moroccan Travellers, Cyrenaica region, the Maghreb, the stations.

المقدمة:

ظلَّ الحجُّ إلى بيت الله الحرام مؤمّلَ المغاربة مُذْ هداهم اللهُ إلى دينه الحنيف في القرن ١هـ/٧م، تتوقُ إليه النفوس والأشواق، وتشرئبُّ نحو مطلعه الرِّكابُ والأعناق، غيرَ آبهين ببُعد الديار، أو ضيق اليد من الدرهم والدينار، متجرّئين على المفاوز والقِفار المتناهية الأطراف، المَخوفةِ الأكناف، حتى قالَ حاجُّهم[١]:

والأَمْنُ فِي الطَّرِيقِ لَيْسَ يُوجَدُ فكم وكم نفس هناك تفقد

حَتَى أَتَى عَنْ بعضِهِمْ أَنْ زَالَ حَجٌّ إِذَا مَا صَادَمَ الأَهْوَالَ

سلكَ الحجّاج المغاربة والأندلسيون في سبيلِ ذلك المقصد طرقاً ودروباً متباينة، ولعلّ أقصاها عن القارة الإفريقية طريقُ البحر انطلاقاً من بلاد الأندلس كما فعلَ ابنُ جبير سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، والقلصادي سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م مروراً بوهران وتلمسان وتونس وصولاً إلى مصر. انطلاقاً من السواحل المغاربية سواء المتوسطية أو الأطلسية، فقد تجرّأ على ركوب البحر رحّالةٌ كثيرون، منهم العلاّمة ابن خلدون انطلاقاً من ميناء تونس سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م، والمقّري التلمساني صاحب "نفح الطيب" بدءاً من ميناء تطوان سنة ١٠٢٧هـ/١٦١٧م، حيث ركب السفينة التي عرّجت به على مدن: الجزائر وتونس ثم سوسة وصولاً إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة، مستذكراً أثناءَها رأيَ الشاعر الجزائري ابن رشيق المسيلي في ركوب البحر[٢]:

أمّا الطرق البرية فتكاد تكون متتالية

البَحرُ صَعْبُ المَرامِ جِدّاً لا جُعِلَتْ حاجَتِي إِلَيْهِ

أليسَ ماءً ونَحْنُ طِينٌ فَمَا عَسَى صَبرُنَا علَيْهِ

ومتشابكة، من غرب بلاد المغرب الإسلامي إلى شرقها، أشهرها: طريق التّل بمحاذاة جبال الأطلس المُطلّة على البحر الأبيض المتوسط، وقد عبَرها الرحالة العبدري سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م، والورثِلاني سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥م. ودُونَها طريقُ الهضاب أو السهوب الداخلية بين الأطلسين التلي والصحراوي، ذات المراعي والكلأ الوافرة، وهي مسار رحّالة مغاربة كثيرين، اتفق معظمهم على تسميتها ـ رغم ما سلَف ذكرُه ـ باسم طريق الصعاليك؟. ودونَها جنوباً طريقٌ شبه صحراوية، عبَرَها أبو سالم العياشي في رحلته

---

[١]) محمد المختار السوسي: أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد، الرباط: ١٩٥٩م، ص٣٢.

[٢]) أحمد بن محمد المقّري التلمساني: نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت:١٩٨٨م، ج١، ص٣٣.

ذهاباً سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦١م، وأخيراً طريق صحراوية موغِلة في الفيافي والقِفار، كانت مسارَ كل من: ابن مليح القيسي سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، وعبد الرحمن التنلاني التواتي سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م، والحاج البشير البرتلي الولاتي سنة ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م.

وتأتي هذه المداخلة المتواضعة في سياق البحث عن ماهية طريق الصعاليك، ما أخطارها وما ميزاتها ومزاياها؟ وما مواقف وروايات الرحالة المغاربة عنها؟ ثمّ لمَ الإصرار على اختراقها تِباعاً؟ وأخيراً هل كانت هذه الطريقُ كلُّها صعاليك؟

١ـ ماهيةُ الطريق وصعاليكها؟:

ربطتْ هذه الطريق خلال الفترة العثمانية أقطاراً مغاربية هي: المغرب الأقصى، الإيالة الجزائرية، إيالة تونس، إيالة طرابلس الغرب، وأول من وَسَمها باسم طريق الصعاليك والمصاعب والمتاعب هو الرحالة **ابن أبي محلّي السجلماسي** في رحلته الحجية الأولى سنة ١٠٠٠هـ/١٥٩٢م [٣]... فكانت الحجة مع طريق الصعاليك، لفقدِ الركب يومئذ مع هجوم الحال..."، وشاطرَه الرأيَ الرحالةُ **أبو سالم العياشي** في رواحهِ من حجَّة سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦١م، وفي تحذيره منها قائلاً [٤]"واحذروا من السرقة بالليل من هنالك إلى برقة، ولا تأمنوا في خلاء ولا في عمارة، وتناوبوا على الحراسة"، والأمر ذاته بالنسبة **لأبي علي اليوسي** في رحلة ١٠٩٥هـ/١٦٨٤م. وسار على خُطاهم آخرون منهم: **ابن ناصر الدرعي** سنة ١١٢١هـ/١٧٠٩م، **وابن الطيب الشرقي الفاسي** سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٧م، **وأبو العباس الهلالي السجلماسي** سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٧م، ثمّ **الحُضَيْكي السوسي** سنة ١١٥٢هـ/١٧٣٩م. فما هي منازل الطريق ومحطاتها؟ ومنْ هم صعاليكها؟

أ ـ منازلُ الطريق وغلبةُ الأعراب عليها[٥]:

١ـ محطّات البلاد الجزائرية: يلتقي بها الرَّكبان المغربي والجزائري، على أنّ الركب المغربي في حدّ ذاته موزّع بين الفاسي والمراكشي والسجلماسي، يعبُر معظمه المحطات التالية تِباعاً:

فجيج: إقليم صحراوي جنوب المغرب الأقصى، مُتاخم لحدوده مع الجزائر، وهو مجموعة كبرى من الواحات والقصور، منها سبعة قصور كبرى[٦]. وذكرَ بعض الرحالة أنّ أول سرقة تعرّض لها الحجّاج كانت فيه، إذْ سُرقت للركب أَبْعِرة من طرف بعض سُرّاق أولاد خليفة من قبيلة العمور البدوية [٧].

---

[٣]) عبد المجيد القدوري: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، الرباط: ١٩٩١م، ص٩٤.

[٤]) أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة الصغرى (تعداد المنازل الحجازية)، ط٠١، تحقيق:عبد الله حمّادي الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت: ٢٠١٣م، ص٦٠.

[٥]) محطات الطريق الآتي ذكرها مرتبة جغرافياً وِفقَ مسير ركب الحج، من الغرب إلى الشرق.

[٦])الصديق بن العربي: كتاب المغرب، ط٠٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٤م، ص٢١٤.

[٧]) أبو العباس أحمد الهلالي السجلماسي: التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، دراسة وتحقيق: محمد بوزيان بنعلي، مطبعة الجسور، وجدة: ٢٠١٢م، ص١٤٨.

القنادسة: وردتْ في كتب الرحلات باسم "العوينة"، وهي أول قرى بشّار ذات النخل والتمر، لكنّ الأعرابَ (القبائل العربية من البدو الرّحل) غالبة عليهم غلبةً لا يطيب معها مقام، رغم قِرى ضيوف الرحمن[٨].

بوسمغون: تقع جنوبَ غربِ الجزائر، وهي بلاد ذات أشجار سُمّيت "بَاسَمْغون" على اسم شيخ صالح حلّ فيها، وهناك قبره يُزار من طرف بعض الحجاج المغاربة [٩].

الغاسول: تلي محطة بوسمغون، وهي من قُرى الجنوب الغربي الجزائري، وليس بعيداً عنها يعبرُ الركب المغربي الفاسي، ليتفق مسيره مع مسير الركب السجلماسي[١٠] (أو الفيلالي لاحقاً).

عين ماضي: من بلاد الأغواط، تقع بمحاذاة جبال العمور الجزائرية، اشتهرت لدى معظم الرحالة المغاربة كونها محطة رئيسية في طريق الحج مُثاقفةً وبيعاً وشراءً.

تاجموت: قرية جزائرية يجتازها الركب، تقع على ضفاف وادي مزي، ليس بعيداً عن الأغواط.

الأغواط: بوابة صحراء الجزائر، مدينة خيّرة عامرة على يمين طريق الحاج، لكنّ أهل قرية **دمد** القريبة منها ـ كما روى الشرقي ـ [١١] مشهورون بالتلصّص والانتهاب، معروفون بسرقة الحجاج بين تلك السّهاب".

بلاد الزاب: بلاد واسعة كثيرة النخيل والأشجار، على أطراف الصحراء، بها مدن كثيرة منها: بسكرة وهي قاعدتها، سيدي خالد، أولاد جلال، سيدي عقبة، المسيلة، طولقة، نقاوس، تهودة، طبنة وغيرها[١٢]. أمّا القاعدة الشهيرة بسكرة فعاصمة الزّاب، بلدة ذات سلع رخيصة للحاج، وهي أول عمالة الترك العثمانيين جنوباً [١٣].

٢ـ محطات تونس وطرابلس الغرب (إفريقيّة قديماً):

توزر: مدينة في أقصى إفريقية (تونس حالياً)، من نواحي الزّاب الكبير، قاعدة بلاد الجريد، لها سور عظيم حصين، معمورة وبها نخل كثير[١٤]. وصفَها ابن ناصر الدرعي بأنها [١٥]"..أكثر بلاد الله سرقة وخطفاً، يسرقون بالليل ويخطفون بالنهار؟"، وهذه النظرة مما درجَ عليه أهلُ الرّحل وتوارثوه، وإنْ لم يُصادف ذلك حجّهم، ومما يُعضّد ذلك رأي الشرقي لاحقاً [١٦]".. **وقد قال** الرحّالون أن توزر أكثر بلاد الله سرقة وخطفاً".

---

[٨]) الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص١٤٦.

[٩]) أبو عبد الله محمد بن أحمد الحُضَيْكي السوسي: الرحلة الحجازية، ط٠١، تحقيق: عبد العالي لمدبر، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط: ٢٠١١م، ص٨٣.

[١٠]) أبو عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي: الرحلة الحجازية، مخطوطة جامعة لايبزيك، فيينا، رقم: ٧٤٦، ورقة٣١.

[١١]) ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة٣٣.

[١٢]) محمد بن عبد المنعم الحِمْيَري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٠٢، تحقيق: إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، بيروت: ١٩٨٤م، ص٢٨١.

[١٣]) العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص٦٥.

[١٤]) الحِميري، المصدر نفسه، ص١٤٤.

[١٥]) أحمد بن ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية، مخطوط ACAD.LUGO.BAT.BIBLIO، رقم: ٦١٠٠٤، ج٠١، ص٥٤.

[١٦]) ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة٤١.

قابس: مدينة كبيرة من عَمالة تونس، بين طرابلس شرقاً وصفاقس غرباً، وهي ذات مياه جارية [١٧].

طرابلس: مدينة كبيرة على ساحل البحر المتوسط، من أهمّ مدن إفريقية، بينها وبين سرت شرقاً عشر مراحل من السير، ومنها إلى جبل نفّوسة ثلاثة أيام [١٨]. كان الحجاج المغاربة يمكثون فيها شهراً استراحةً، ومن ثَمَّ استعداداً لدخول مفازة برقة المُوحِشة[١٩]. ورغم أن روايات الرحّالين تواترت بشأن أمن المدينة وحصانتها، إلاّ أنهم حذّروا من السرقة في أنحاء أعمالِ طرابلس[٢٠].

تاجورا: موضع من أحواز طرابلس، وهو المدخل الغربي لقِفار برقة، ينزل في رُكنٍ منه ركب الحاج، فسُمي ذلك الموضع منزل الركب[٢١].

برقة: إقليم كبير لمدينة قديمة بين الإسكندرية شرقاً وإفريقية غرباً، وهو في المنتصف بينهما وتربته حمراء، يضم مواقع منها: الجبل الأخضر، سرت، الجابية...الخ [٢٢]. وإقليم برقة هو مُنتهى طريق الصعاليك، لكنّه أخطر محطّاتها على الإطلاق، بسبب ازدواجية المشاق والمخاطر، حيثُ يسود عاملُ القِفار الخاليةِ المرعبة على أعمال اللصوص والسرّاق، لذلك أضحى الوصول إلى برقة واجتيازُها بسلامٍ مضرب المثَل للحاج الموفَّق، فيُقال بالعامية الدارجة في بلاد المغرب "حَجّْ وجَازْ عْلَى بَرقة؟". ويكفي للدلالة على ذلك المشهد الذي رسمه العياشي في رحلته عن سبخة الهايشة مدخل برقة قائلاً [٢٣]"... وهي سبخة مستطيلة وعلى جوانبها بناء وقصور خالية، وفيها نخيل متفرق كأنه رؤوس الشياطين، لا ترى أوحش منه ولا أثقلَ طلعةً على الحاج في ذهابه، لِما يستشعر بعده من المهامه والمفاوز والمعاطش التي يحار فيها الدليل". فلا غروَ حينئذ أنْ تُنسب طريق الحج كلُّها إلى إقليم برقة [٢٤]:

لا بُدَّ مِن جَوْبِ قِفَارِ بَرْقَه في نَحوِ عامٍ مَعَ بُعْدِ الشُّقّه

ب ـ صعاليكُ[٢٥] الطريق وصعاليكُ الرّكب:

صعاليك طريق الحج ليسوا شعراءَ شجعان متمردين على سلطة القبيلة وواجباتها، من قَبيل: السّليك والشنفرى وعروة وتأبّط شراً وغيرهم، لكنهم بعض الأعراب (وأحياناً يردُ ذكرهم بلفظ العُربان) ممن امتهنَ سلبَ ونهب أركاب الحج، طمعاً أو خشية إملاق، وإمعاناً في عادة التعرّض للركب وإذاية الحجاج في غدوّهم ورواحهم، فأُغلقت بسبب ذلك المسالك، ولم يعُدْ الحاج يأمن من الوقوع في المهالك[٢٦].

---

[١٧] ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت: ١٩٧٧م، ج ٠٤، ص٢٨٩.

[١٨] الحِميري، المصدر نفسه، ص٣٨٩.

[١٩] أبو سالم العياشي: الرحلة العياشية الكبرى (ماء الموائد)، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي: ٢٠٠٦ م، ج ٠١، ص١٣٥.

[٢٠] العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص٧٣.

[٢١] الدرعي، المصدر السابق، ج٠١، ص٧٥.

[٢٢] الحِميري، المصدر نفسه، ص٩١.

[٢٣] العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج٠١، ص١٩٥.

[٢٤] محمد المختار السوسي، المصدر السابق، ص ٣٢.

[٢٥] يُنظر معاني هذه الكلمة لغةً واصطلاحاً في: ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ج ٠٤، مادة: صعلك، ص٢٤٥٢.

[٢٦] العياشي، المصدر نفسه، ج٠٢، ص٥٤٤.

لقد اتّفق معظم الرحالين المغاربة على كشف ممارسات أولئك الصعاليك، والتحذير من كيدهم ومكرهم في الطريق، يقول العياشي في رحلته الصغرى [٢٧] وإنْ لقيتم الأعراب فاحذروهم فإنهم لا أَيْمان لهم، بل ولا إيمان؟"، وفي موضع آخر [٢٨]". ولا تأمنوا الأعراب على إبلكم في مسارحها في غياب عسكر طرابلس". بل نجد أحياناً سكان المدن والقُرى التي يعبرها الركب يُحذّرون الحجاج من الأعراب، ويَشْكُون إليهم غلَبتهم وكثرة عددهم وشدة إذايتهم[٢٩]، والأدهى والأغرب في نظر الرحالين أنهم وجدوا الأعراب بعضهم يُحذّر من بعض[٣٠]، وهذا دليل على تشعّب بطون تلك القبائل، واستحكام العداوة والبغضاء فيما بينها.

واللافت للنظر فيما رواه الرحّالون أنّ هؤلاء الصعاليك يتجنّبون المدن والأمصار الكبرى، ويتحيّنون فرص مرور ركب الحج بالوديان والوهاد التي لا مناص لهم من اجتيازها، ويستغلّون فترة حلول الظلام ومعرفتهم بالمداخل والشعاب للإقدام والهجوم. ورغم أنّ مضاربَهم تتبدّل حسب الفصول ووفرة المرعى والماء، والخصب والرخاء، إلا أن الثابت هو أنّهم يملؤون التّرهات والطرق لغرض واحد، كما يقول السوسي[٣١]:

والتُّرهاتُ باللصُوصِ تُعترَضْ وأنتَ وحدَكَ لهُمْ هُوَ الغَرَضْ

وفضلاً عن صعاليك الطريق الذين يُتقّى شرّهم قدر الإمكان، حملَ ركبُ الحج في ذاته صعاليك من نوعٍ آخر. إنهم حجّاج يقصدون البيت الحرام، لكنّهم عالةٌ على الركب، ينزلون وسطَه احتماءً بظهور مَن معهم ليأمنوا على متاعهم، لا ينفعون الركب بمدفعٍ ولا حراسةٍ بالليل، ولا يحضرون الجماعة، بلْ صاحَبتهم شرذمةٌ ضالّة، تحجّ لاكتساب الفلس والدينار، ولا تميّز الحلال عن الحرام[٣٢]، فصدقَ فيهم قول الشاعر[٣٣]:

رأَى البَيْتَ يُدعَى بِالحَرامِ فَحَجَّهُ ولَو كانَ يُدعَى بِالحَلالِ لَمَا حجَّا

وقد أضحتْ هذه الفئة من الحجاج عبئاً ثقيلاً على الركب طيلة الرحلة، لا تتقيّد بأوامر شيخ الركب، ولا تتحرّى السلامة العامة أو التزام الطاعة، وتقوم بأعمال وتصرفات تعود على الركب بالضرر، من ذلك مُفارقة الجماعة دون استئذان في بعض المدن. يذكر العياشي مثالاً على ذلك قائلاً [٣٤]" وأردنا

---

[٢٧]) العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص٨٢.

[٢٨]) المصدر نفسه، ص٨١.

[٢٩]) من ذلك ما حكاهُ السجلماسي عن أهل الأغواط قائلاً "ولما رأى أهل الأغواط ركبنا استقلوه، فخوّفونا غاية من الأعراب، وقالوا: إما أن تصبروا هنا إلى أن يقدم الركب الفاسي فتجتمعوا معه، وإما أن ترجعوا من هنا بلا حج، فإنّا نخاف عليكم الأعراب، لكثرة عددهم وشدة إذايتهم، ولا تمكن النجاة منهم عادة".

يُنظر: الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص١٨٥.

[٣٠]) لهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص١٩٩.

[٣١]) محمد المختار السوسي، المصدر السابق، ص ٠٧.

[٣٢]) الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص١٩٦.

[٣٣]) بن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة١٩.

[٣٤]) العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج٠٢، ص٤٩٩.

المبيت بالمسجد فوجدناه غاصّاً بالصعاليك من الحجاج، وأكثَروا فيه اللغط"، وفي تصرّف آخر منهم ينمّ عن لامبالاة وأنانية وعدم مسؤولية [٣٥] ولمّا كان المطر حفر بعض صعاليك الركب بيتاً تحت جرفٍ، فَكَنُّوا فيه من المطر، فسقط عليهم ودفنهم، فبادر الناس بالحفر عنهم فأخرجوهم سالمين". ولعلّ من لطائف الأقدار أنْ أصبح هؤلاء الحجّاج الصعاليك يقعون في شرّ أعمالهم، إذْ يذكر العياشي أنّ بعض الصعاليك تقدّم أول الركب دون إذن، فخرج عليهم لصوص وسلبوهم، فبلغَ الخبر إلى أمير الركب فتدخل[٣٦].

وبالنظر إلى تهوّر أولئك الصعاليك من الحجاج وتمرّدهم على ضوابط الرحلة، أصبح الجميع يرتاب من تصرفاتهم، ويحتاط لسرقة مالِه وأملاكه، خاصة إذا تعلّق الأمر بأشياء صغيرة يمكن إخفاؤها عن صاحبها، مِن ذلك مثلاً سرقة دلو لأحد الحجاج، كان يستخدمه في تسخين الماء للطهارة زمنَ البرد[٣٧]. ويبدو أنّ خطر هؤلاء الصعاليك على الركب لا يقلّ عن خطر الصعاليك قطّاع الطرق، لأنه بإمكانهم سلب أثمن ما يحمله معه الحاج وإنْ صغُر حجمه، وبصفة خاصة مالُهُ الذي حصّله بعد جُهد وتدبير من أجل أداء مناسك الحج، لذلك جاءت النصيحة للحاج بشأن محفظته، من طرف الرحالة العياشي الخبير بمثلِ هذه الأحداث قائلاً [٣٨]"...وإيّاك أن تنزعها من رقبتك عند فلي ثوبك، وإن أردتَ الاغتسال فلا تطرحها جانباً. ولفّها في قميصك الذي لا يمكن أن تنساه، وإنْ لم تقدر على تعليقها فحُطّها في صدرية، ولا تنزعها لإرادة النوم".

ذلكم قدَرُ الحاج، أنْ يقعَ في رحلته الطويلة المُضنية بين مطرقة صعاليك الخارج وسندان صعاليك الداخل، من أقوامٍ ليس لهم من حجّهم سوى المشقة والمخمصة والنّصَب، وفي أمثالهم ينقل الشرقي[٣٩]:

حجَجْتَ البَيْتَ ليْتَكَ لاَ تَحُجُّ ومنكَ الرّكبُ في الآفاقِ ضَجُّوا
ورُحْتَ بِحَملِ أوْزارٍ ثِقالٍ فَعُدتَ وفَوقَ ذاكَ الحمْلِ خَرْجُ

٢ ـ أعمالُ الصعاليك وأساليبُ الاعتداء:

أ ـ مظاهر الاعتداء والسرقة والسطو على الركب:

لمْ تخلُ طريق الصعاليك (من فجيج إلى برقة) من مظاهر السلب والنهب خلال القرنين ١١ و١٢هـ، ويرى معظم الرحّالة أنّ تلك الآفة قديمة قِدم توافد وتواجد القبائل العربية في بلاد المغرب الإسلامي، بل يربط بعضهم خراب إقليم برقة الحد الفاصل بين مصر والمغرب، وهي مسافة شهرين،

---

[٣٥]) الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص٤٨٨.

[٣٦]) العياشي، المصدر نفسه، ج٠١، ص١٢٩.

[٣٧])المصدر نفسه، ج٠٢، ص٥٠٠.

[٣٨])العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص٥١.

[٣٩]) ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة١٩.

بخروج قبائل عرب بني هلال[٤٠] الشهيرة من مصر، في بداية القرن ٥٠هـ/١١م، فخرّبوا البلاد واستولوا على القرى فأفسدوها وخلت البلاد من يومئذ[٤١]؟. لكن لا يمكن التسليم بأن تلك القبائل وفروعها هي المسبّب الوحيد لأحداث السلب التي شهدتها طريق الحج، بدليل وجود قبائل متباينة ومتنافرة فيما بينها، وشكوى بعض القبائل العربية سليلةِ بني هلال في حدّ ذاتها من اعتداء الأعراب عليها، واستقبال معظمها للحجّاج المغاربة في محطات العبور، بلْ وفي الطريق أحياناً من أجل التسوّق مع الركب.

رغمَ ما سبقَ لا يمكن إنكارُ حالات الاعتداء المتكررة على ركب ضيوف الرحمن، ولا يمكن تبريرُها بحالٍ من الأحوال، بغضِّ النظر عن حجمها المُتنامي وجغرافيتها المتباينة. ولطالما اشتكى الرحالون من أعراب الأماكن القاصية وشدة أذيّتهم، على غرار: عرب الجبل الأخضر فهم [٤٢]" من أشدّ العرب كفراً ونفاقاً، لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله؟...لا حرفةَ لهم بعد تنمية مواشيهم إلا النهب والغارة، قلّ ما مرّ بهم ركب سلم من أنشاب الحرب بينهم وبينه، بسبب غدرهم وفتكهم عند اشتغال الناس بالسوق معهم"، وأعراب وادي الناموس من بلاد الزّاب فهم [٤٣]"سُراق قُطّاع يكمنون في الوادي، وينتهبون الحجاج كثيراً"، أمّا عرب سيدي خالد فقد جمعوا نحو ثلاثمائة فارس، ونزلوا أعلى الوادي قصدَ الوثوب على الركب إذا توسطهم[٤٤] ؟.

وفضلاً عن تجهيز عدد كبير من الفرسان، لجأ قطّاع الطرق في بعض النواحي إلى استخدام نوع خاص من البنادق أو المدافع؟ ـ تُذكر بهذا اللفظ في كتب الرحلات ـ يُسمى "بوفتيلة"، لأنها لا زناد لها، وإنما تُضرم بنارٍ في فتيلة [٤٥]. وغالباً ما تُحقّق إغاراتُهم أهدافها، ويستولون بصفة خاصة على ما أمكن من الدواب بأحمالها، فقد أخذوا نحواً من عشرين بعيراً في غارة بالجبل الأخضر[٤٦]، واستولوا على فرسين أثناء السقاية قهراً [٤٧]، وفي الحالات النادرة يسلم بلْ يفرح الحجاج، ولا يكون حظّ اللصوص إلاّ ما ذُكر في الواقعة التالية [٤٨]"... فارتحلنا عنهم، ونجّانا الله تعالى بلطفه من شرّهم، ولم يَضِعْ للركب إلا بغلة وجملٌ سُرقا"؟.

---

[٤٠])لمزيد التفاصيل عن قبائل بني هلال العربية وهجرتها الواسعة إلى بلاد الغرب الإسلامي وتأثيراتها المختلفة يُنظر:
عبد الحميد بوسماحة: رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التاريخية الاجتماعية والاقتصادية، ط٠١، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر: ٢٠٠٨م.

[٤١]) العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج٠١، ص١٩٧.

[٤٢]) العياشي، المصدر السابق، ج٠١، ص٢٠٢.

[٤٣]) الحضيكي السوسي، المصدر السابق، ص٨٦.

[٤٤]) العياشي، المصدر نفسه، ج٠٢، ص٥٤٤.

[٤٥])الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص٢٠٧.

[٤٦]) العياشي، المصدر نفسه، ج٠٢، ص٤٩٥.

[٤٧])الدرعي، المصدر السابق، ج٠١، ص٣٤.

[٤٨]) الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص٢٢٥.

ب ـ إعمالُ المكر والحيلة في قطع الطريق:

إنّ ضررَ الاعتداء كيفما كان بليغٌ على ركب الحج، ولكنّ بعض الشرّ أهون من بعض، وغالباً ما تكون الاعتداءات بقصد السرقة أشدَّ في رحلة الأوبة من رحلة الذهاب، بسبب ما يجلبُه الحجاج معهم من نفائس وهدايا، وبسبب وجود القوافل التجارية المُصاحبة في رحلة الحج. وحينما يقطع الركب مسافة يوم كامل دونما سرقة أو اعتداء فذلك مدعاة للفخر والغرابة، كما يروي السجلماسي في رحلته الحجية متندّراً [٤٩]". وسِرْنا جميعَ النهار فلم نَرَ سارقاً بحمد الله، جزاهم الله خيراً؟ فإنّ هذا الزمان أولى بإنشاد قول أبي الطيب:

إنَّا لَفِي زمَنٍ تَرْكُ القَبيح بِهِ مِنْ أَكثَرِ النّاسِ إفضالٌ وإجْمالُ"

لكن اجتناب المواجهة المُباشرة مع الركب لا يعني بِحالٍ انتفاءَ خطر السُرّاق، بل إنهم يلجؤون إلى الحيلة والمكر، كأنْ يُجبروا الحجّاج على منحهم فرساً لشيخ القبيلة كلّما مرّ ركبٌ بإزائهم، بدعوى أنّها عادة قديمة من زمن أجدادهم [٥٠]؟ أو الهجوم على مؤخّرة الركب، والتمكّن من سرقة حاج، سلبوه ثيابه وبضاعته، وشجّوه بحجر[٥١]، أو التسلّل خُفية أثناء نزول الركب، حيث سَرق أحد المتلصّصة فرساً لحاج، ركضَها من فِناء الخيام [٥٢]، أو الجُرأة على الحاج الحارس ـ وقد أصابتهُ غفوة ـ إذْ سرقَ اللص بندقيتَه وسلبَه بُرنُسَه، ثم احتمى بالجبل[٥٣]...الخ.

ومن طرائف الوقائع مع صعاليك الطريق، أنّ بعضَهم جاء للحجاج بِسلعٍ كثيرة للبيع، فيها كُتُب قيّمة، منها مصحف بخط مشرقي وكتاب في فقه الحنفية، لكنهم كانوا قد نهبوها من سفينة تكسّرتْ في بعض سواحل المتوسط [٥٤]. والغريبُ في الأمر أنّ لهؤلاء الأعراب جرأةً كبيرة على سرقة الحجاج بأيّ شكل، مردّها الأول والأخير الجهل والطمع، حيث وصلَ بهم الأمر في إحدى المرّات إلى أنّهم [٥٥] "يتبايعون مع الحجاج، ثمّ يخطِفون من أيديهم المبيع ويذهبون به؟ فقليل من يلحقهم لكثرة الازدحام. وقد غسلَ الحجاج ثيابهم ونشروها وجلسوا عليها يحفظونها، فإذا رأى أحدهم غفلة من صاحبها وثبَ عليها كالسنّوْر فاختطفَها وفرّ هارباً، ولا غرابةَ في ذلك، حتى إنّهم ـ في نظر السجلماسي ـ قد يختلِسون القدور وهي تغلي[٥٦] !؟.

---

[٤٩]) المصدر نفسه، ص١٧٠.

[٥٠])العياشي، المصدر السابق، ج٠١، ص١٩٨.

[٥١]) الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص١٧٤.

[٥٢]) العياشي، المصدر نفسه، ج٠٢، ص٤٨٩.

[٥٣]) الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص١٦٣.

[٥٤])العياشي، المصدر نفسه، ج٠٢، ص٤٩١.

[٥٥]) الدرعي، المصدر السابق، ج٠١، ص٥٤.

[٥٦])الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص١٩٧.

٣ ـ عواملُ اختيارِ الركب طريقَ الصعاليك:

رغم تلكم الصعوبات والاعتداءات التي اعترضت الحجاج في هذه الطريق، إلاّ أنّ معظم الأركاب المغاربية دأبتْ على عبورها سنوياً تِباعاً، والسؤال المحيّر هو لمَ الإصرار على اختراقها رغم التحذير والتنويه باستمرار إلى مخاطرها؟ لعلّ مردّ ذلك جملةٌ من العوامل والأسباب المنطقية، أبرزها ما يلي:

أ ـ عامل جغرافي:

يتمثّل في كون هذه الطريق موائمةً كأقرب الطرق وأقصرها مسافة، وكما يُقال في عُرف أهل الرياضيات فإن أقرب خط بين نقطتين هو الخط المستقيم، فرغم وجود بعض المنعرجات إلا أنها أقلُّ مقارنةً مع الطريق العليا أو الطريق الجنوبية البعيدة الموغِلة في الصحراء. إضافةً إلى وفرة المراعي والكلأ وعيون الماء، خاصة في مقطع السهوب الجزائرية، وهي أنفسُ ما يبحث عنه الركب، وأكثر الأشياء إدخالاً للسرور في نفوس الحجّاج، وقد عبّر الرحّالة عن ذلك بأنّ الدواب نالتْ من المرعى عيشاً رغداً [٥٧]. كما أنها تخلو في معظم محطاتها من عروض الحرارة الحامية، ومن عروق الرمال العالية، والرياح العاتية، المُثبّطة لعزائم الحجاج في سيرهم، والتي من شأنها أنْ تؤدي بهم إلى التيه والضياع.

ب ـ عامل سياسي:

يتجلّى في أن معظم محطات الطريق هي بمثابة "نقاط تماس" مع النفوذ التركي العثماني، بعيداً عن المراكز والمدن الكبرى، حيث السيطرة والهيمنة على حركة القوافل والبضائع، مما يُتيح قدراً من الحرية للحجاج. على أنّ الركب المغربي الرسمي منذ انبعاث الدولة العلوية منتصف القرن ١١هـ/١٧م اعتاد المسير عبر هذه الطريق[٥٨]، ممّا شأنه توفير هامش من الحماية لبقية الأركاب المغاربية المتجزّئة، ويصبغ على الطريق نوعاً من الهالة والمهابة، فقد يكون له صدى في نفوس الصعاليك اللصوص؟.

٤ ـ زادُ الحجّاج وسلاحُهم:

أ ـ الزّاد الروحي والزّاد المادي:

إنّ أعظمَ ما يمكن أنْ يتزوّد به الحاج المسافر هو التقوى، مصداقاً لقوله تعالى [٥٩] "**وَتَزَوَّدُوا خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**"، ومُلازمة ضروریاتها من إخلاص العمل لله، واللجوء إليه عند طلب التيسير، والإكثار من الذكر المأثور، وقد أسهمَ الرحالون المغاربة ـ في نصائحهم للحجّاج ولِمن يأتي بعدهم ـ في التوجيه إلى جملةِ الأذكار والأدعية المتعلّقة بالحفظ والمعافاة من آفات الطريق وصعاليكها، فقد نقلَ العياشي في رحلته الصغرى كثيراً من تلك الأدعية، أمّا الشرقي فقد أفردَ مقدمة وافيةً في رحلته لذلك الأمر.

---

[٥٧]) الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص١٦٦.

[٥٨]) لمزيد التفاصيل عن أشهر الأمراء والأميرات من دولة العلويين الذين مرّوا بهذه الطريق خلال الفترة المدروسة يُنظر:
عبد الرحمن بن زيدان: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ط٠١، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة: ٢٠٠٨م، ج٠٣، ص ص٣٢،٢٦.

[٥٩]) سُورة البقرة، الآية ١٩٧.

من أمثلة ما نقلَ العياشي الفقيهُ الدعاء التالي [٦٠] "اللهمّ إلهَ جبريل وميكائيل وإسرافيل وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، عافينا ولا تسلّطْ علينا أحداً من خلقك بشيء لا طاقة لنا به"، بينما وجّه السجلماسي المسافر الحاجَّ إلى الإكثار من قول "حسبنا الله ونعم الوكيل"، ونظمَ في الدعاء للحفظ أرجوزة، من أبياتها[٦١]:

فهَبْ لَنَا عَافيَةً.. بِنَا تُحيطْ أنتَ الحَفيظُ والمُقيتُ والمُحيطْ

أُلطُفْ بِهذا الرَّكْبِ لُطْفاً لا يَذَرْ سُوءاً يَحومُ حَوْلَهُ.. ولا حَذَرْ

وبما أنَّ وجود الأعراب الصعاليك كان أكبرَ خطر يُهدّد ركب الحج المغاربي، فقد اهتدى الحجّاج إلى أخذ الحيطة والحذر فيما يتعلّق بالمؤونة والغذاء، من أجل اجتناب مضارب تلك القبائل وأسواقها قدر المُستطاع، وذلك بالتزوّد الشامل في المدن والمحطّات الكبرى فقط، ولأجل ذلك ينصح العياشي قائلاً [٦٢]".. وخذ من الزاد من سجلماسة ما يبلّغك إلى بسكرة، وهي مسافة شهرٍ تزيد قليلاً"، والأمر ذاتُه بين محطتين أخريين هامتين، هما طرابلس وبرقة [٦٣]، تحقيقاً للاكتفاء واحتياطاً لعوائق الطريق. ولا يتمّ الأمر إلاّ باستصحاب الدليل الماهر الخِرِّيت، الخبير بالطريق وغوائلها، فهو أنفعُ رفيق، ويظلُّ من الله ـ وحده ـ التوفيق [٦٤].

ب ـ ردود أفعال الحجّاج المغاربة:

في ظلّ غياب حمايةٍ رسمية لأركاب الحج، بسبب طبيعة الطريق والسلطات القائمة المتحكّمة حينئذ، وتباين أقاليمها سياسياً، لم يقفْ الحجّاج المغاربة مكتوفي الأيدي أمامَ تلك التحرّشات التي ألِفَها الأعرابُ الصعاليك، بل تحلّوا بالحيطة والحذر، وباتوا مستعدّين لأيّ طارئ أو طارق، لِما اعتادوا في الطريق من النهب والسرقة [٦٥]. ومن الأساليب الناجعة حيالَ ذلك أنْ ينقسمَ أصحاب الخيل والبغال إلى قسمين: قسم أمام الركب وقسم وراءه، ليحرسوا من تطرَّف من الركب سابقاً أو لاحقاً [٦٦].

ولا يمكن أن تنجح عمليات الحراسة دون امتلاك سلاح رادع مهيب ـ وقتئذ ـ يتأتّى امتلاكه وحملُه بيُسر للمشاة والخيّالة على حدّ السواء، لذلك اصطحبَ الحجاج معهم في أول الأمر البنادق البارودية، المعروفة محلياً باسم المكاحل[٦٧]، فإنها ـ في نظر العياشي خلال القرن ١١هـ/١٧م ـ [٦٨] هيبةُ الطريق

---

[٦٠] العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص٥٥.

[٦١] الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص١٨٥.

[٦٢] العياشي، المصدر السابق، ص٥١.

[٦٣] المصدر نفسه، ص٧٤.

[٦٤] الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص١٦٦.

[٦٥] ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة٣٢.

[٦٦] الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص١٧٣.

[٦٧] **المكاحل:** كلمة عامية شائعة ببلاد المغرب، مفردها **المكحلة**، والمقصود بها هنا البندقية المستخدِمة للبارود. ومن معانيها اللغوية الوعاء، ولعلها سميّت بذلك لاحتوائها البارود وحشوه في الوعاء.

يُنظر: ابن منظور، المصدر السابق، مادة: كحل.

[٦٨] العياشي، المصدر نفسه، ص٥١.

وأيّ هيبة؟ وهي نعم السلاح لمن هو في تلك الطريق"، ولاحقاً (القرن ١٢هـ/١٨م) تمّ استخدام البنادق (المدافع) المزودة بالرصاص الحي في الحراسة، حيث يذكر السجلماسي أنّ لصاً تمكن من سرقة بندقية من بعض الركب، وحين تبعوه رماهم برصاصة، لكنّه لم يُصِبْ أحداً [٦٩]. ونظراً لِما عُرفت به الطريق فقد أصبح الحرّاس من أعوان الركب الرئيسيين، ومكوّناً هاماً لا يعدو أنْ يكون من ضمن الحجّاج أنفسِهم، شريطةَ التحلّي باليقظة والخفّة والقدرة على المُقارعة والمناورة. وقد تمكّن الحرّاسُ في إحدى المرات من سارق خطير تسلّل ليلاً، وأوثقوه إلى الصباح، ثمّ سلّموه إلى أمير المدينة المجاورة، فأمرَ بخنقه إذْ كان مشهوراً بالتلصّص عندهم[٧٠].

ومنْ أساليب الحراسة والحماية من خطر الصعاليك إعلانُ النفير العام داخل الركب، وذلك أن تُنصب الراية الكبرى من طرف فارس يتقدم الركب ليستكشفَ الطريق والتأكد من سلامتها يُسمّى "العَلاّم"[٧١]، وإثر ذلك يتمّ نقرُ الطبل من طرف حاج متخصّص، حيث يسمعه جميع من في الركب، فيجتمعون ويتهيئون لمدافعتهم[٧٢]. وقصد إرهاب الأعراب وتخويفهم بالليل ـ خاصة إذا كانوا كثيري العدد ـ يُلجأُ أحياناً إلى إيقاد النار خارج الأخبية والمنازل، ومن ثمّ ضرب المتربصين بالركب بالبنادق[٧٣].

وفي حالات نادرة يكون ردّ فعل الحجّاج على اعتداءات الأعراب الصعاليك من نوع خاص، من ذلك مثلاً أنْ يشتكوا إلى شيخ العرب ـ إنْ هم توسّموا فيه الإنصافَ والإغاثة ـ ليردّ إليهم ما سلبهُ مُنتسبو قبيلته، فقد يُجدي ذلك أحياناً، مقابل كسوة أو هدية يعِدونه بها([٧٤]) ؟. وفي حالة أخرى انتقامية لحظةَ غضب، قام أحد الحجّاج من الركب بالاعتداء على أعرابي تمكّنَ منه، فسلَبهُ ثوبَه ثأراً لحاجّين سُلبت ثيابُهما في نفس المكان، فأعطى الثوب لأحد الرجلين المسلوبَين، معتقداً من جهله جوازَ ذلك([٧٥])؟.

٥ ـ الطريقُ ليست كلُّها صعاليك؟:

إنّ المطّلعَ على حجم الاعتداءات التي تعرّض لها الحجّاج في ظعَنِهم وإقامتِهم ببعض المحطات، من ترهيبٍ ونهبٍ وسلب وسرقة وابتزاز وخديعة، يكادُ يعتقد أنّ الطريق كلَّها لصوص وصعاليك؟ وأنْ لا مجالَ للقيم الإنسانية أو الأبعاد الحضارية فيها، غير أنّ الواقع الذي أثبتَه الرحالون يُفنّد ذلك الاعتقاد. فالطريقُ مكتباتٌ وكتب وعلوم يحرص الحجاج على مُدارستها، وأعلام وعلماء يبتغون زيارتهم، ورجالٌ ونساء وصبيان يتلقّون الركب بصدر رحب ويُكرمون وِفادته. الخ.

وعلى ذكر الكرم فكتبُ الرّحلات الحجازية لا تخلو من عبارات الثناء والعرفان على أهل القرى والمدن، وعلى بعض أعراب البوادي، الذين يُكرمون الركب غاية الإكرام، فمنهم من أتى الركب أفواجاً

---

[٦٩])الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص١٦٣.

[٧٠]) العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج٠١، ص١٧٧.

[٧١]) الحُضيكي، المصدر السابق، ص٨٥.

[٧٢])الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص١٩٧.

[٧٣])العياشي، المصدر نفسه، ج٠١، ص١٧٧.

[٧٤]) المصدر نفسه، ج٠٢، ص٤٨٩.

[٧٥])الهلالي السجلماسي، المصدر نفسه، ص١٦٩.

فُرادى وأزواجاً شيوخاً وكهولاً وشبّاناً رجالاً ورُكباناً بفواكه كثيرة، بعنب وبسر وخوخ..[٧٦]، وفي محطة بسكرة عاصمة الزاب، التي سار الحجّاج بإزائها، خرج أهل البلد جلُّهم للقاء الركب بالترحيب والتحبيب، فأحاطوا به من جميع الجهات، وشرعوا يلعبون بالخيل والبغال في زينتهم لإظهار السرور والترفيه عن الحجّاج [٧٧]، والحفاوة ذاتها وجدها الحجاج في طرابلس الظريفة ذات الفواكه المنوعة والظلال الوريفة ـ كما وصفها الشرقي ـ فقد بالغ أهلها في الإكرام بأنواع الطعام والشراب[٧٨]. وفي بلدة صغيرة بالطريق تمّ استقبال الحجّاج بأوانيَ من الطعام، على الواحد منها نصف شاة لحماً [٧٩]... ومن أمثال هذه الحالات كثير.

وما يميّز هذه الطريق أيضاً وجود عشرات الزوايا والمدارس والمساجد العتيقة، من أشهرها زاوية سيدي عبد الرحمن الأخضري، صاحب التأليف المشهور ببلاد المغرب، الأرجوزةِ الموسومة بـ "السلم المرونق في علم المنطق"[٨٠]، وقد نقلَ معظم الرحالين ـ وعلى رأسهم العياشي ـ بأن الأخضري المذكور هو من أبانَ عن قبر سيدي خالد (نواحي بسكرة)، وأكّد أنه النبيُّ خالد بن سنان العبسي، من حكماء العرب في الجاهلية، وإنْ كان الاختلاف حاصل بشأنه وشأنِ مدفنِهِ بالمغرب الأوسط [٨١]؟. ومن عبقِ التاريخ في طريق الصعاليك بإقليم الزاب أيضاً مدينة سيدي عقبة، التي يحرص الحجاج المغاربة أيّما حرص على زيارتها، حيث قُبِر القائدُ الفاتح الشهير "عقبة بن نافع الفهري الأموي"، فاتحُ إفريقية وباني مدينة القيروان[٨٢]، إضافة إلى زيارة ضريح الصحابي أبي لُبابة الأنصاري، أحدِ صحابة النبي ـ صلى الله عليه وسلّم ـ في قابس[٨٣].

ومن لطائف رحلة الركب المغاربي في هذه الطريق، مرورهم في محطة قابس بِرَحَى لطحن الحبوب غريبة الصنعة، يتمّ تشغيلها بالماء من وادي المدينة الجاري، إلاّ أنها أصبحتْ تتعطّل كثيراً [٨٤]. وبما أنّ هذه الطريق تعبُر هضاب الجزائر العليا شديدة البرودة، فقد عانى فيها الحجّاج كثيراً في موسم الشتاء، وصادفهم أحياناً نزولُ الثلج بكميات كبيرة لم يألفوها، إذْ يروي الدرعي في رحلته المشهد التالي: [٨٥]"... ونزل بنا ليلاً من الثلج ما كثرَ وثقُلت به الأخبية، وغُطّيت الطرقُ وظهورُ الإبل ولمْ يزلْ كذلك إلى الظهر، وعجَّ الناس إلى الله بالدعاء والابتهال والتضرّع". والظاهرُ أنّ شدّة البرودة

---

[٧٦]) الدرعي، المصدر السابق، ج٠١، ص٢٨.

[٧٧])الحُضيكي، المصدر السابق، ص٨٦.

[٧٨]) ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة٤٣.

[٧٩])الدرعي، المصدر السابق، ج٠١، ص٣٠.

[٨٠]) **عبد الرحمن الأخضري** (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م) من أعلام الجزائر المتصوّفة في بداية العهد العثماني، يُنظر ترجمته في: بوزياني الدراجي: عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوّق في عصره، ط٠٢، البلاد للنشر، الجزائر: ٢٠٠٩م.

[٨١])العياشي، المصدر نفسه، ج٠٢، ص٥٤٣.

[٨٢]) الحُضيكي، المصدر نفسه، ص٨٦.

[٨٣])الدرعي، المصدر نفسه، ج٠١، ص٥٥.

[٨٤])العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص٦٩.

[٨٥])الدرعي، المصدر نفسه، ج٠١، ص٣١.

كانت ممّا يتخوّف منه الركب كثيراً، رغم انعكاس ذلك إيجاباً على المرعى ومناهل الماء، ففي الشتاء تقصُر الأيام وتكثر المراحل للمبيت، وتتّسع الأمعاء للأكل؟ فلا يكاد يكفي الإنسانَ ما يحمله من الزاد، خصوصاً في المقاطع الخالية من الطريق[٨٦].

وطريقُ الصعاليك ـ فضلاً عمّا سبق ذكره ـ فضاءٌ للتواصل بين الحجّاج وساكنةِ القرى والمداشر والأمصار بيعاً وشراءً، لكن الاحتياط في ذلك واجب، لأنّ الشراء في الغالب إنما هو من عند النساء والصبيان وضعفة الرجال[٨٧]؟ حيثُ إن بعض النساء يتسوقن مع الحجاج، ومن دخل إليهن يتسوّق معهن في الدُّور دون حجاب[٨٨]. وبعض البلاد خصّها الرحالون بالتنبيه والتحذير من فتنة النساء، على غرار قرية عين ماضي، فـ [٨٩]"نساؤها يزُعْنَ بالحسن والجمال، من أزهرِ النساء سناءً وأزهاها، وأبهرِها سَناً وأبهاها، عيونٌ فواتر أمضى في القلوب من السيوف البواتر:

عَيْنُ مَاضي بِها عُيونٌ مَوَاضٍ فَاعِلاتٌ فِعلَ السُّيوفِ المَواضِي

وقُدودٌ تزْهو إذا قدّتِ القَلبَ ازدِهاءَ الأغصانِ بيْنَ الرِّياضِ"

وكي لا تصيب تلك السهامُ الحجّاج، دأبَ الرحّالون المغاربة على إسداء النصح لِعابر هذه الطريق عامةً وللحاج خاصة: [٩٠]"... إيّاك ثم إيّاك يا أخي أن تدخل القرية!؟ وَالْزَمْ منزِلَك وخَباءَك، واغضضْ بصرك، فإنهنّ يفتِنَّ من رمْقهن..ولقد افتتنَ بهن عامةُ الحجاج؟ والعياذ بالله من فتنة الأهواء واتباع الشهوات".

الخاتمة:

إنّ "طريق الصعاليك" وكلَّ ما بيّنّاهُ من يوميات حجّاجها، ما هو إلا جزء يسير من زَخَم ركب الحج المغاربي، العامرِ بأبعاد وجوانب اجتماعية، ثقافية، اقتصادية...وأيضاً وجدانية. فالطريق تحتاج إلى دراسات أخرى جادّة من أجل استنطاق تلك الأبعاد؟. وعلى ذكر الوجدان فإنّه رغم تلك المخاطر المتباينة والبيّنة، لا يأتي أوانُ ارتحال الرَّكب، إلا أطاعت الجفونُ داعيَ السّكب، وحنَّتْ حَنينَ الثكْلَى الوَالِه، إلى معاهد الرّسولِ وآلِه، ودبَّ بين الجلدِ والعِظام، دبِيبُ الشَّوق إلى تلكَ المشاعرِ العِظام[٩١]. ولسانُ حالها يقول:

يَا مُزمِعَ الارتِحالِ عنَّا أَسْعَدكَ اللهُ في ارْتِحَالِكْ

كانَ لكَ اللهُ خَيرَ واقٍ أَمَّنَكَ اللهُ في المَسَالِكْ

---

[٨٦])العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج٠٢، ص٤٩١.

[٨٧]) العياشي، الرحلة الصغرى، مصدر سابق، ص٤٨.

[٨٨]) الهلالي السجلماسي، المصدر السابق، ص١٦٥.

[٨٩]) ابن الطيب الشرقي، المصدر السابق، ورقة٣٢.

[٩٠]) الحُضيكي، المصدر السابق، ص٨٤.

[٩١]) العياشي، الرحلة الكبرى، مصدر سابق، ج٠١، ص٥٣.

المصادر والمراجع المعتمَد

- ابن زيدان عبد الرحمن: إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ط٠١، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة: ٢٠٠٨م، ج٠٣.
- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة.
- ابن العربي الصديق: كتاب المغرب، ط٠٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت: ١٩٨٤م.
- بوسماحة عبد الحميد: رحلة بني هلال إلى الغرب وخصائصها التاريخية الاجتماعية والاقتصادية، ط٠١، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر: ٢٠٠٨م.
- الحُضَيكي السوسي أبو عبد الله محمد بن أحمد: الرحلة الحجازية، ط٠١، تحقيق: عبد العالي لمدبر، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط: ٢٠١١م.
- الحموي ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت: ١٩٧٧م، ج ٠٤.
- الحِمْيَري محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، ط٠٢، تحقيق: إحسان عباس، مطابع هيدلبرغ، بيروت: ١٩٨٤م.
- الدراجي بوزياني: عبد الرحمن الأخضري العالم الصوفي الذي تفوّق في عصره، ط٠٢، البلاد للنشر، الجزائر: ٢٠٠٩م.
- الدرعي أحمد بن ناصر: الرحلة الناصرية، مخطوط ACAD.BAT.BIBLIO، رقم: ٦١٠٠٤..
- المقّري التلمساني أحمد بن محمد: نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت:١٩٨٨م، ج١.
- العياشي أبو سالم: الرحلة العياشية الكبرى (ماء الموائد)، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي: ٢٠٠٦م.
- العياشي أبو سالم عبد الله بن محمد: الرحلة الصغرى (تعداد المنازل الحجازية)، ط٠١، تحقيق:عبد الله حمّادي الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت: ٢٠١٣م.
- القدوري عبد المجيد: ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، الرباط: ١٩٩١م.
- السجلماسي أبو العباس أحمد الهلالي: التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، دراسة وتحقيق: محمد بوزيان بنعلي، مطبعة الجسور، وجدة: ٢٠١٢م.
- السوسي محمد المختار: أصفى الموارد في تهذيب نظم الرحلة الحجازية للشيخ الوالد، الرباط: ١٩٥٩م.
- الشرقي الفاسي محمد بن الطيب: الرحلة الحجازية، مخطوطة جامعة لايبزيك، فيينا، رقم: ٧٤٦.

الملاحق

رسم توضيحي لمسار الطريق (طريق الصعاليك. خاص)

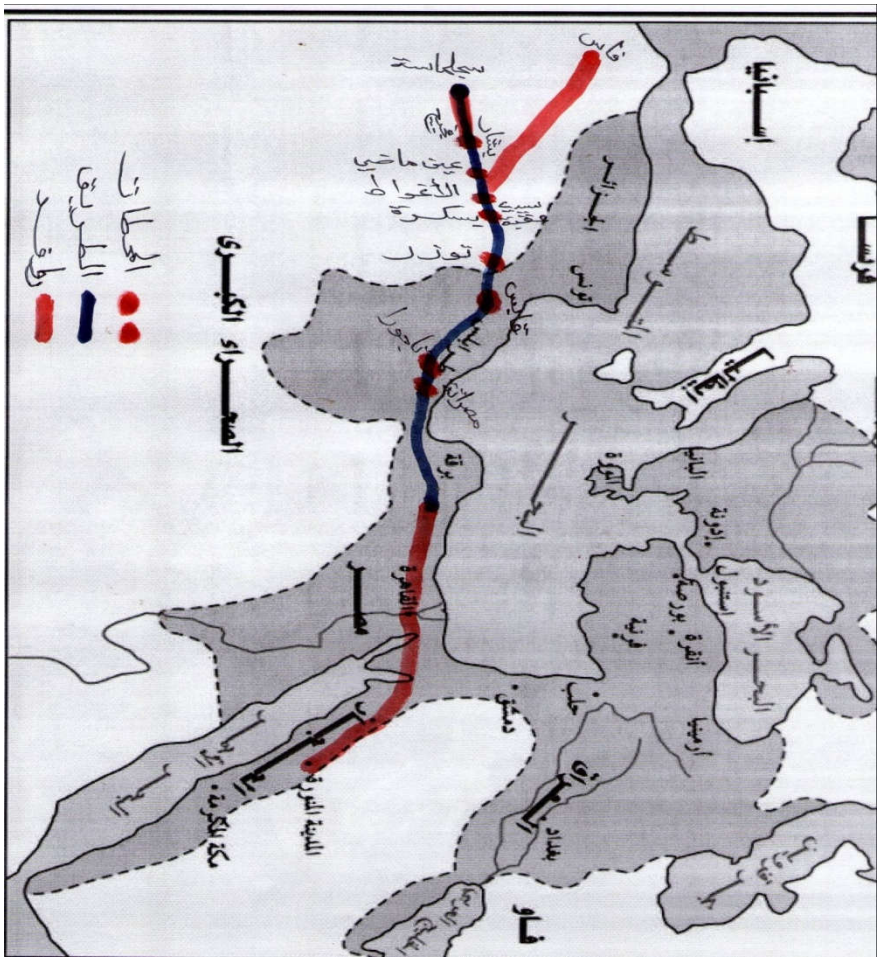

من رحلة ابن ناصر الدرعي سنة ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م (مخطوطة المكتبة الوطنية. الجزائر)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

قال الشيخ الإمام العالم العامل الفاضل
الفضل الأعمر وارث الأكابر الأخير
الفريدة الكمامة بين الشريعة والحقيقة
ويسأل الله بعظمته أبو العباس بن
محمد بن أبي الزرع عفا الله عنه ونفعه

الحمد لله الذي جعل الرحلة ليمم الأمام من أعظم القربات وجعلها في
نقد المساعي أعظم بادرة الدرجات وتكفير الصغيرات فما جاء بعزم
كما جاء به سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ولا عمر عمره
وعمر أنبيائه قبله ولا اختار
الله لهم ولا لغيرهم هلاكا في سفر الشام والمغرب فما أعظم الخلل
في العزم الذي تعارضت فيه المصالح الدينية والدنيوية فقال
العلماء رضي الله عنهم إذا تعارضت مصلحة الحج مع مصلحة
غيره فالحج أفضل لأن تعارض الحج والغزو في السنة الواحدة
يجب فيه الحج والغزو وتعارض الدين والدين حتى أن قوما
من الأمة صاروا إلى ما يخرج عن الدين بسبب ذلك
الذي ولاه الله الأقوام لما بيتا وفي عميق غفلة عن
رفع الله تعالى عنه قول الله إذا تعلق الأمر بالصلاة بعد رسوله وأن العزم

تقديم ما كان قبلها وإذا لم يقع ما كان قبله قال عليه السلام
الحجاج والعمار وفد الله وزواره سألوه فأعطاهم وإن استغفروه غفر لهم
وإن دعوه استجاب لهم وإن تشفعوا شفعهم الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود
الحاملة على عمش انشغالهم بما هم فيه من الشر والشر الذي في الكتاب الحكيم
وفي الأحاديث الصحيحة عن القتال وأنه أفضل التطوع وعلى آله وأصحابه
الذين هجروا ديارهم وأموالهم وأهليهم وعلى من تبعهم بإحسان صلاة تكون لقدره
العظيم كفاء ومجده الفخيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
تضرع عظيم ومسألة واقعة تتابعت وتوالت وتواصلت وتواترت أضعاف
أضعاف الحصى والحصباء ومثاقيل الرمل والثرى والماء وحيث الأمر
خرج عن الحصر والعد والإحصاء فلا يحصل على الكفية الواجبة في التخلص
منه كما لا يحصل على الكيفية المندوبة إلا بالاستكثار من
الخلطاء والأعوان فلما تعذر ذلك وفات الشهود وتركا حضور الجمع
للمقاتل التي يعيبها ولا غرو لما سمع بها ولما عجز عنه
والله أسأل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه ويقربه إليه زلفى
الزحم خرجت أطفاله المتعرين به وجه الظهر وأخرج الزوائد سؤل
كلمات يتحيل بصحة آلة البيع وإن منع الغرر وإن قصد بفعل الفعل
والقول وتطلبه بكل أن تمنا وإن تمنعا لم يسأل أهل الدين بعروة ثابتا
بصاحب الوقت المطلق من قال اصنعوا وقوله الله وإن تشكروا يعلم أنه
وصرفه بكتاب يطفئ نار الفتن ويعلم الهواجع ويزيل الزلازل ما أرى
أتم ما وجب أداؤه بالعلم به وجوبه ومن به قبل الله العظيم بما جعله

من رحلة ابن الطيب الشرقي سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٧م (مخطوطة جامعة لايبزيك. فيينا)